وزارة الثقافة

عودة السفينة

تأليف: إسحاق موسى الحسيني

برنامج الحفاظ على الرواية

رقمنة

وزارة الثقافة
Ministry of Culture

عَودة السّفينة

وزارة الثقافة الفلسطينية

سلسلة الموروث الثقافي

اسم المؤلف: إسحق موسى الحسيني

اسم الكتاب: عودة السفينة ومسرحية درة الفن اليتيمة

الطبعة الأولى: عودة السفينة عام ١٩٤٥، ودرة الفن اليتيمة ١٩٢٥

الطبعة الثانية: ٢٠٢١

الإشراف العام: عبد السلام عطاري

مراجعة وتدقيق: رشيد عِناية - نور عرفات

لوحة الغلاف للفنان: صوفي حلبي

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب، أو أي جزء منه، أو تخزينه في نطاق استعمال المعلومات، أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذنٍ مسبق من الناشر.

All rights are reserved. No part of this publication may be reproduced, stored in a retrieval system or transmitted in any form or by any means, electronic, mechanical, photocopying, recording or otherwise, without prior permission of the publisher.

فلسطين

www.moc.pna.ps

أمة منتهية

هناك وهم عالق في بعض الأذهان. وهو أن الأمة العربية في هذه البلاد لا بُدَّ لها من أن تجتاز مراحل الحضارة مرحلة مرحلة حتى تبلغ مرتبة الأمم الراقية. ويشبهونها بطالب في السادسة من عمره يود أن يدخل المدرسة. فإنه لا يستطيع دخول الصف السابع الابتدائي الذي هو نهاية المرحلة الابتدائية، ولا الصف الرابع الثانوي الذي هو نهاية المرحلة الثانوية. ولو جاء والد بولده إلى المدرسة، وهو في تلك السن، وطلب أن يدخل الصف السابع الابتدائي لاستهزأ به المدير، وارتاب في عقله.

ويشبهونها كذلك بامرئ يريد الصعود في السلم، فإنه لا يستطيع بلوغ الدرجة الاخيرة من أعلى إلا إن ارتقى الدرجات، واحدة واحدة.

فعلى هذه الأمة، حسب زعمهم، أن تدخل الصف الاول الابتدائي، فالثاني، فالثالث، فالرابع إلخ ...، حتى إذا أتمت المرحلة الابتدائية انتقلت الى الثانوية واجتازتها صفًّا صفًّا، ثم شخصت – إن شاءت – إلى الجامعة وبلغت نهاية الدورة التعليمية.

وهذا كلام معقول لا غبار عليه، ولكنهم نسوا أن الأمة التي يتحدثون عنها قد اجتازت المرحلة الابتدائية والثانوية والجامعية منذ زمن قديم، وأن التشبيه واهٍ من أساسه.

ولست بحاجة إلى إيراد الأدلة القاطعة على أن الأمة اجتازت بالفعل هذه المراحل جميعًا، مرحلة مرحلة، وأنها تحمل بيدها شهادة موقعة من كبار الأساتذة، شرقيين وغربيين. ذلك أن إيراد الأدلة قد يؤدي إلى المدح والزهو اللذين ينبغي أن يعف عنهما القلم؛ ولأن توقيعات الأساتذة واضحة لم يقوّ الزمن على محوها.

خذ أي كتاب شئت في تاريخ الحضارة أو الثقافة أو الأدب في اللغات الأوروبية وتأمل ما يقول في العرب. إنه يقول عنهم إنهم بلغوا الذروة في وقت كانت فيه سائر الأمم إما في سفح الجبل، وإما في طريقها إلى الذروة. لم يجلس على القمة – في وقت من الأوقات – سوى العرب. وليس معنى هذا أن غيرهم لم يجلس عليها في وقت غير ذلك الوقت. لقد شاء التاريخ أن تتعاقب أممٌ على القمة. ومن تلك الأمم الأمة العربية.

وأرجو ألا يحمل هذا القول على الزهو، فالزهو ضعف لا قوة. ولكن يجب ألا يبلغ منا التواضع حد إنكار حقوقنا.

فقول بعضهم إذن إن الأمة العربية يجب أن تخضع لطبيعة الكائنات وأن تبدأ علمها من الصف الأول، قول من لا يعرف التاريخ أو من لا يود أن يعرفه.

ولو كانت الأمة العربية في سن الصف الأول حقًا لوجب الاعتراف بذلك؛ لأن الأمة المبتدئة – كالطالب المبتدئ – لا يشينها أن تكون مبتدئة، وأن تعرف حقيقة حالها، بل يشينها أن تزعم لنفسها ما ليس لها فتبقى أقدامها في الوحل إلى ما شاء الله. فنحن نؤمن بكفايات الأمم جميعها دون تميز، وبأن كل أمة تستطيع أن تمر في أدوار الحضارة، إن تيسرت لها الأسباب. وهذا الإيمان يدعو إلى الاعتراف بالحق والتنزه عن الدعاوى الباطلة.

الأمة إذن منتهية لا مبتدئة، ولكن قد مضى عليها وقت طويل شُغلت فيه عن نفسها وعن دروسها فبدت كأنها مبتدئة. ولعل أصدق وصف لها أنها ناسية. نسيت حالها وعلمها وأدبها وفلسفتها حتى جار عليها قوم وحكموا عليها بأنها مبتدئة. ولكن شتان ما بين

مبتدئ وناسٍ، فالأول ملزم بالانتقال من صف إلى آخر حتى يتم المراحل الثلاث الابتدائية والثانوية والجامعية. والثاني يحتاج بعض وقت ليستذكر دروسه القديمة. ومع شيء غير قليل من الجلد والجهد يعود إلى حيث انتهى.

على أن الاستذكار ليس سهلًا. إذ كانت فترة الانقطاع طويلة حقًا. والوقت لا ينتظر حتى يستذكر الناسي ويلحق بمن سبقه. فلا بد من جهود متواصلة ومن توجيه دائم حتى لا ينقطع نفس المستذكر ولا يبرم بحاله. فهل هذه الأمة قادرة على الاستذكار؟ وهل ظروفها التي تكتنفها معينة لها عليه؟

متفائلون ومتشائمون

والناس في بلادنا فريقان. فريق متشائم، وآخر متفائل.

أما المتشائمون فيذهبون إلى أن الأمة أشبه بسفينة في وسط البحر. والبحر هائج مضطرب. والرياح شديدة عاتية. ومن في السفينة موثوقو الأقدام والأيدي، وليس هناك من سبيل إلى خروج السفينة من وسط البحر والاتجاه نحو شاطئ السلامة، فمصير السفينة معلق بالقدر، وهو وحده الذي يتحكم فيها، يقذفها تارة شمالًا وتارة جنوبًا.

ويقول الفريق الآخر: قد يكون الأمر كما يذهب المتشائمون. وقد تكون الأمة أشبه بسفينة في بحر هائج. ولكن من في السفينة ليسوا موثوقي الأقدام والأيدي، إنهم يعيشون على ظهر الباخرة كما يعيش ركاب أية سفينة صادفها في أثناء سيرها بحر هائج وريح عاصفة، ومن الحمقّ أن يستسلم ركاب السفينة إلى القدر ويمتنعوا عن العمل إلى أن تحل النازلة، ويذهب الركاب طعمة لحيتان البحر.

وليست هذه السفينة أول سفينة عثر حظها. فكأي من سفينة واجهت في سيرها رياحًا هوجاء عاتية، فلم يقنط ركابها من رحمة

الله. وضاعفوا الجهد حتى سكنت الرياح، ثم واصلوا سيرهم إلى الثغر الذي قصدوه، فبلغوه فرحين مستبشرين.

وفي هذه الفترة التي تعرض فيها الركاب للتهلكة اكتسبوا شعوراً ما كانوا ليكتسبوه لو سارت السفينة في بحر هادئ آمن، فشعور التعرض للموت يوقظ في النفس كل ما فيها من شعور، وكل ما فيها من قوة، وكل ما فيها من إيمان. والنفس في حياة الأمن يستيقظ جزء من شعورها، وتظل سائر الأجزاء مسترخية، لأن من طبيعة الأمم الاستقرار والتراخي.

ولكن الشدة التي تصيب الأمة وتوقظ كامل شعورها لا تُطلب ولا يُقصد إليها قصدًا، وإلا كانت شدة متكلفة عائمة على سطح النفس، لا تثير من الشعور فوق ما تثيره حياة الأمن.

فإذا فطن الناس لطبيعة الشدائد وعلموا أنها محن تُبتلى بها الأمم كما تبتلى السفن بالأعاصير، وأنها مدعاة لإثارة قواهم، وايقاظ مشاعرهم، وتكاتف جهودهم، خرجوا من العسر إلى اليسر، كما يخرج ركاب السفينة إلى شاطئ السلامة.

وأقل ما في مذهب المتفائلين أنه ينفع ولا يضر، في حين أن مذهب المتشائمين يضر ولا ينفع.

وليس هناك أدنى ريب في أنه خير لركاب السفينة التي تبتلى بالعواصف العاتية أن يدفعوا الموت بكل ما يملكون من قوة وإيمان وسعي.

فإذا كتب لسفينتهم النجاة أكسبهم جهادهم ذلك الشعور الذي ذكرناه. وإذا كتب لها الغرق قضوا آخر لحظة من حياتهم عامرة قلوبهم بالأمل الذي هو أسطع نجم في سماء الخليقة.

إن واجب الطبيب أن يدخل الأمل في قلب المريض الذي يعاني سكرات الموت. فإن نجا المريض في آخر لحظة – وهو أمر محتمل الوقوع – أفاده الأمل، وإن لم ينجُ لم يضره.

على أن المتشائمين والمتفائلين متفقون على أن السفينة في وسط البحر وأن البحر مضطرب، والرياح هوجاء، والخلاف في حال مَنْ في السفينة، أهم واعون أم فاقدو الرشد؟

حالةُ وعي

كل القرائن تدل على أن الأمة في حالة وعي.

فلا يلتقي شخص بآخر حتى يبادره قائلًا: إلى أين؟ ومتى؟ وكيف؟

ولا يمر حدث مفزع حتى يتداعى الناس إلى مقابلته بقلوب واحدة وعقول واحدة.

ويتصور المراقب لحياة الأمة يغشاها حينا سبات عميق، وحينا آخر غفلة سابغة؛ ولكنه لا يلبث أن يدرك أن تلك المظاهر أعراض آنية، وأن الشدائد، التي هي محك الجوهر، تكشف عن إيمان راسخ وفهم صحيح وقوى متحفزة.

ويخيل للباحث أحيانًا أن المقالات التي تكتب، والمؤلفات التي تصنف، والخطب التي تلقى تذهب مع الريح. ولكنه إن تأمل ما تحت القشرة رأى هذه الاثار تقيم وتقعد. أو على الأصح، تقيم أناسًا وتقعد آخرين. ولا بأس من هذه التفرقة ما دامت الحركة موجودة، فالحركة على اية صورة كانت، تدلّ على حيوية ووعي.

كلفني نادي الشبيبة الاسلامية في يافا – وهو ناد يصح أن ينهض بنفسه دليلًا على الوعي – أن أتحدث إليه في موضوع اختاره، وبدا لي أن أخيّر النادي بين ثلاثة أحاديث؛ الأول أدبي محض، والثاني ثقافي

محض، والثالث اجتماعي محض، وهو ذو صلة وثيقة بهذا الذي اكتبه.

فتخير الحديث الثالث، فتؤكد في نفسي أن الشباب واع وأنه يبحث عن سبيل العودة إلى شاطئ السلامة.

وقد كان الناس يشكون في قلة المكاتب فصاروا يكادون يشكون كثرتها.

وكانت المدارس في الماضي تخطب ود الطلاب وتغريهم بشتى السبل بالإقبال عليها. واليوم لا تدري المدارس كيف تصد الطلاب عنها.

وهكذا يستطيع المرء أن يجد في كل ناحية من نواحي الحياة دليلًا على أن الوعي في صدور الناس، وأن من في السفينة ليسوا موثوقي الأيدي والأرجل، كما يذهب المتشائمون.

ولكن هذا الوعي هو مادة خام يصنع منها النسيج. إنه كالقطن المنفوش لا تستطيع أن تستفيد منه ما ظل منفوشًا. فلا بد من أن يُحلج ويغزل ثم يصنع منه نسيج يخاط ويُلبس.

وهذه دورة تكاد تكون عامة في جميع المواد الاولية – الخام – حتى الذهب نفسه الذي يعد من أنفس المعادن. فهو – مخلوطًا – في التراب قليل القيمة، وهو في الدينار كبير القيمة، وفي الحليّ التي تحيط بالأعناق نفيس للغاية.

وإذا كنا وثقنا بأن الوعي قائم، وأن من في السفينة منطلقة أيدهم وأرجلهم، فلا بد من أن نعرف السبل المؤدية إلى النجاة من اضطراب البحر وعتو الرياح.

جوهر وعَرَض

ولكن يجب أن نميز أولًا الجوهر من العرض والحاجي من الكمالي حتى نقدم ما حقه التقديم ونؤخر ما حقه التأخير.

وليس من المهم أن ترسم خطة مفصلة لسير مخلوق ما، بل المهم أن تركز في نفسه مبادئ أساسية، ثم تترك له حرية السير، وربما كان من الخطل أن تحيط المسترشد بألف قاعدة وقاعدة. فإنك بذلك تحرمه نعمة الاعتماد على نفسه، ونعمة الحرية الذاتية، علاوة على تضليله والإساءة إليه بحسن نية حين تنشأ أمامه مصاعب لم تخطر ببالك ولم تحطها قواعدك.

ورسم الطريق للسائر لا بد من أن تسبقه معرفة تامة بالسائر نفسه والأرض التي يسير عليها.

وعلى المرشد أن يُدلي برأيه بعد طول التروي، وعلى المسترشد أن يجعل شكره حسن الظن، ولا خير في الرأي إن أحيطت به الشبهات.

ونحن نعاني من سوء الظن والشبهات ما يرد الرأي الصحيح إلى أسوأ حال، وما يضيع المتفاني في خدمة بلده في أرذل موضع.

وحلو لبعض الناس أن ينسبوا كل رأي جديد إلى مذهب من المذاهب الغربية، فصاحب الرأي إما صاحب هذه النحلة أو تيك أو تلك، فهو لا بد مأجور على أي حال أدرت رأيه، وهو لا بد تابع لغيره، وينسى هؤلاء أن الفكر العربي أصيل كل الأصيل، وأن الجدة فيه من سجاياه الراسخة في الأعماق، وأنه في انطلاقه يحاكي السهام في انطلاقها كل منطلق، وأنه لا ضير عليه في ذلك، ما دام الأفق الذي تلتقي فيه السهام هو الخير المطلق، وفي الأدب العربي شواهد كثيرة على ذلك، ولا نعرف أدباً أوسع أفقًا وأكثر انطلاقًا من الأدب العربي.

فإن كان أصحاب الشبهات يصدرون عن هوى، فهواهم لا بد من أن يبين عاجلًا أو آجلًا، وإن كانوا يخمنون فليخطئوا مرة وليخمنوا الصواب.

روى الشاعر المرحوم معروف الرّصافي أنه سأل طالبًا عن إعراب كلمة، فقال إنها مجرورة. فقال: لا. فقال الطالب: منصوبة. فقال: لا. فقال: مرفوعة. وكانت كذلك. فقال الرصافي: ما دمت تخمن، فيا ليتك خمنت الصواب وقلت مرفوعة أول مرة.

فهل هؤلاء الذين يتهمون الفكر العربي حين ينطلق في الآفاق ملتمسًا الهدى والرشاد أن يخمنوا الصواب ويقرّوا له بالأصالة والحيوية؟

وبعد، ماذا يجب على الركاب أن يفعلوا، أو بعبارة أخرى: ما الدروس التي يجب أن تستذكرها الأمة المنتهية الناسية حتى تستعيد مجدها، وتعود كما كانت في طليعة الأمم المتوثبة؟

المجموعُ قبلَ الفَرد

أول درس يجب أن يُراجع هو ان المجموع مقدم على الفرد، وأن على الفرد أن يرعى حرمة المجموع ويصونها من كل عبث، وأن يجعل من نفسه دعامة قوية لبناء الأمة.

حقًا إن الأفراد هم الذين يكوّنون المجموع. ولكن قد يوجد أفراد وليس عندهم شعور بهذا الكائن المعنوي العام الذي يسمى مجموعًا أو أمة. فيغالي الأفراد في رعاية مصالحهم الخاصة وصيانتها من العطب دون تقيد بمصلحة المجموع. فترى شخصًا يطول ويعرض حتى يصبح في شكل عملاق في حين يبدو من حوله هزالًا كالأشباح، أو قصارًا كالأقزام. وإن تعرضت مصلحته الشخصية للعطب ثار وزمجر حتى تحسبه أسدًا، وإن تعرضت مصلحة المجموع للعطب استكان واستحذى حتى تحسبه هرًا أو دون الهرّ.

لقد مضت علينا قرون وهذا الكائن المعنوي العام مفقود أو في حكم المفقود؛ لأن نظام الحياة كان قائمًا على تقديس الحقوق الفردية وإهمال الواجبات الاجتماعية.

كان الفرد – مثلًا – يقصد الغنى عن كل طريق، وإذا جمع ألفًا صار وكده أن يجمع الألف الثاني، وإن جمع الثاني انصرف إلى الثالث والرابع حتى يصبح من أصحاب الآلاف.

وليس من ضير أن يجمع العصامي مالًا بجده، ولكن الضير في أن يكدس الأموال ويحبسها في خزائن مغلقة، ويعيش هو في بحر من الفضة أو الذهب، ويعيش الآخرون في بحار من الجوع والفقر والبؤس. إن واجب الغني أن يعرف لنفسه حقها عليه. ولكن من واجبه أيضًا أن يعرف للمجموع حقه عليه. من واجبه أن يساهم عن طريق المشاريع الاجتماعية في إسعاد أكبر عدد من الناس، كي يعيش في بيئة سعيدة، سعيدًا بنفسه، وسعيدًا بغيره من بني وطنه، لا سعيدًا بنفسه وشقيًا بغيره.

وفي الأمم الراقية التي يظلها روح الكائن المعنوي العام يتنافس الأغنياء في إسعاف من يواتهم الحظ، أو من عثرت حظوظهم من طفل يتيم أو لطيم، أو امرأة أيم، أو كهل معوز.

وهذه ناحية من نواحي الاجتماعية، وهناك نواح كثيرة تختلف باختلاف الأدوار الاجتماعية التي تكون فيها الأمة.

حدث في أثناء دراستي في لندن أن ذهبت إلى غرفة التلفون لأحدث صديقًا، فأخرجت من جيبي مفكرتي لأنظر رقم التلفون، وبعد الحديث غادرت الغرفة وتركت فيها المفكرة سهوا، وبعد عودتي إلى الجامعة احتجت إلى المفكرة فبحثت عنها فلم أجدها، وكانت تحتوي على عناوين أصدقائي وكتابات كثيرة في شؤوني الخاصة، فهرعت إلى غرفة التلفون فلم أجدها، فحزنت لفقدها، وبعد يومين جاءتني رسالة في البريد فقصصتها وإذا فيها المفكرة ورسالة من شخص لا يعرفني يقول فيها إنه عثر على المفكرة في غرفة التلفون ووجد في صدرها عنواني فأعادها لي، ولم يذكر الرجل عنوانه. فأكبرت مروءته، وتلقنت درسًا في المحافظة على حقوق الناس، ممن أعرف ولا أعرف، لن أنساه.

وليست هذه الحادثة فريدة، ففي المتنزهات العامة في لندن وضواحيها حيث يكثر الزائرون لا تجد أثرًا للقذر، فالأفراد والجماعات يتناولون أحيانا طعامهم فيها، ولكنهم يجمعون النفايات ويضعونها في مكان بعيد صيانة للصحة العامة وجمال المتنزهات، فهم يعتبرون الأماكن العامة ملكًا للأمة يجب أن تصان من العبث والقذر بقدر ما يصون المرء بيته وحديقته منهما.

وما لنا نذهب بعيدًا، فهذا المقري يروي في نفح الطيب (ج١ /٤٢٣) أن فقيهًا اسمه ابو بكر الخزرجي المالقي كان لا يأكل إلا من كسب يده، يخيط الثياب، ثم صار يدق القصدير ويأكل منه ويتصدق بما فضل منه ... جاءه مرة شخص قد زيد عليه في أجرة مسكنه ليشفع إلى صاحب الدار وأعطاه الزائد مدة أشهر. فعلم بذلك الساكن بعد مدة، فذهب الى الفقيه الخزرجي وقال له: يا سيدي! ما سألت إلا شفاعة، فقال له الفقيه: رجل له دار يأخذ أحزنها يجيء إليه الخزرجي يقطع عليه حقه! والله ما يدفع الزيادة إلا أنا.

فأي رعاية هذه لمصلحة المالك؟ وأي عطف على الفقير؟

وروي الطرطوشي (سراج الملوك ١ /٩٨) أن يحيى بن أكم قال: ماشيت المأمون في بستان، والشمس عن يساري والمأمون في الظل، فلما رجعنا وقعت الشمس أيضا علي. فقال لي المأمون: تحول مكاني وأتحول مكانك حتى تكون في الظل كما كنت، وأقيك الشمس كما وقيتني. فإن أول العدل أن يعدل الرجل على بطانته، ثم الذين يلونهم حتى يبلغ العدل الطبقة السفلى، فعزم علي فتحولت.

وروى ابن بطوطة في رحلته (ج١ / ٦٣) قصة طريفة قال: مررت يومًا ببعض أزقة دمشق. فرأيت به مملوكا صغيرا قد سقطت من يده صحفة من الفخار الصيني، وهم يسمونها الصحن، فتكسرت واجتمع عليه الناس. فقال له بعضهم: اجمع شقفها واحملها معك لصاحب أوقاف الأواني. فحملها وذهب الرجل معه إليه فأراه إياها، فدفع له ما اشترى به مثل ذلك الصحن. وهذا من أحسن الأعمال. فإن سيد الغلام لا بد أن يضربه على كسر الصحن أو ينهره. وهو أيضا ينكسر قلبه ويتغير لأجل ذلك. فكان هذا الوقف جبرا للقلوب. جزى الله خيرا من تسامت همته في الخير إلى مثل هذا.

فهذه القصص تشهد على أن الافراد في عصور الرقي يرعون حق الجماعة، ويحرصون عليه حرصهم على حقوقهم. وما الجماعة إلا الأفراد. فإن رعى الفرد حق غيره، رعى غيره حقه، وأمنت الأمة شر الأنانية والجشع والاحتيال على المجموع في سبيل مطامع الفرد.

ونحن نمر أحيانا بقروي فنتقزز لمرآه. وإن شممنا رائحة "طابونه" ضاقت صدورنا، وإن لمسنا يده الخشنة تأذينا. ومن هذا القروي؟ أليس هو الذي يستنبت الحبّ الذي نعيش منه؟ أليس هو الذي

يعد لنا المواد الغذائية من جبن ولبن وبيض ودجاج وخُضر؟ أليس هو جزءنا العامل المنتج؟ ألا يمثل ريفنا الجميل؟ أليس هو الذي يغذو بدمه النقي، وذهنه المشرق، وسريرته النقية، سكان المدن؟

ونمر أحيانا ببدوي ساذج فنهزأ به ونزدريه. وإن جالسناه في سيارة وددنا لو أن الأرض ابتلعته وخلا المقعد لنا. ومن هذا البدوي؟ أليس هو صانع سمننا ولبننا وراعي ماشيتنا؟ أليس هو جزءنا الصحراوي الذي يحفظ حدود وطننا؟

اقطع القروي والبدوي من الأمة، فإنك تقطع من الوطن ريفه وصحراءه، وهل تستغني الأمة عن ريفها وصحرائها؟ وهل تقوم المدن في سحب سابحة على وجه الأرض؟

وما مظاهر الرعاية التي نسبغها على القروي والبدوي؟ وبم نكافئ جزءنا العامل الخير على ما يؤديه من خدمة وما يبذل من جهد في سبيل المجموع؟

إن حبنا القروي والبدوي لا يبدل حالهما من شر إلى خير، وإن احترامنا إياهما لا يخفف بلواهما، ولا يذهب بما يبدو عليهما من فاقة ومرض.

على من يود خير هذين المخلوقين حقًا أن يرسم خطة عملية لإنقاذها مما يعانيانه.

ولعل أظهر ما يبدو من تقصير نحوهما أن المدني لا يذهب إلى الريف أو الصحراء إلا متفرجا. وإن هزته النخوة ألقى النصائح ذات اليمين وذات الشمال. كأن هذين المخلوقين يريان طريق الخلاص ولا يسلكانه، ويعرفان الدواء ولا يتعاطيانه. وليس كذلك. إن لهما مشاكلهما المعقدة التي تحتاج إلى درس عميق وعمل متواصل.

خذ مسألة صغيرة. في ضواحي بيت المقدس قرى لا طرق معبدة لها. فهل تداعى سكان المدينة إلى تعبيدها، لتصل شرايين الحضارة بين الريف والمدن؟

وهناك مسألة أخرى؛ أكثر الريف لا يعرف الطب ولا يعرفه الاطباء. فهل سمعت أن جماعة نهضت لفتح " عيادات " في مراكز رئيسية؟

إن دعوتنا إلى حب الريف حبًا أفلاطونيًا لا تكفي، يجب أن يدعم الحب بالعمل المنظم بعد درس المشاكل درسًا عمليًا، وبعد فهم طبيعة القرية ومزاج القروي.

لا غرو إن كنا نسمع اليوم أن الريف يهزل ويتضاءل. إن أمراضه القديمة تفتك به، ولم يدرس أحدٌ جديا هذه الأمراض. إنَّ أقصى ما نفعله هو التغني بجمال الريف. أستغفر الله، التغني بلذاذة الباذنجان البتيري والقرع الخليلي والمشمش القرطاسي والعنب البيتوني! وهذه ناحية من نواحي الخدمة الاجتماعية، وما أكثر سائر النواحي!

إلا إذا كنا نريد أن نعود، أن نكون أمة، فيجب أن يكون كل فرد خادم للأمة، مؤمنا بحقوقها عليه، عاملا على خيرها وسعادتها. يجب أن نفعل ما فعل ذلك الرجل الإنجليزي مع من لم يعرفه، وأن نفعل ما فعل الفقيه الخزرجي مع المستأجر والمؤجر، وما فعل المأمون مع يحيى بن أكم، وما فعل صاحب وقف الأواني.

المرأة

وهنالك مخلوق آخر اعتبرناه مدة طويلة من الزمن متعة ومتاعًا، وما هو في الحقيقة إلا أمّ وأمة، وهو المرأة.

إننا لا يمكن أن نكون أمة إلا إن أعدنا لهذا المخلوق المهيض الجناح حقوقه الطبيعية كاملة.

إن مشاكلنا جمعيها، من اقتصادية وثقافية واجتماعية وخلقية وأدبية ستظل على ما هي عليه من التعقيد، ما دامت المرأة في الموضع الذي نضعها فيه.

إن من يعتبر المرأة دمية عليه أن يعتبر نفسه ابن دمية. وليس من رجل يعرف معنى الرجولة يرضى أن يكون كذلك.

هناك ثلاث حجج يحتج بها بعض الناس لحبس المرأة في سجنها؛ الأولى أن الدِّين أراد ذلك. وهذه أقبح تهمة يمكن أن توجه إلى الدين، فالدين رفع شأن المرأة وأعزها وصان حقوقها، وهل هناك أبلغ في الدلالة على ذلك من القول المأثور: الجنة تحت أقدام الامهات؟

وصاحب هذه الحجة يخالف الواقع والتاريخ، فالواقع ينكر أن هذه المرأة القروية المتمتعة ببعض حقوقها والقائمة بأكثر واجباتها

في المجتمع، على ضيقه وسذاجته، امرأة مارقة من الدين. والتاريخ يشهد أن المرأة العربية كانت في كثير من الأوقات سيدة كاملة السيادة، يأخذ الرجل عنها العلم والدين كما يأخذ عن كبار العلماء والفقهاء، ويروي لها الشعر، ويستمد من روحها الشجاعة والبطولة، ومن أنوثتها الفن والأدب، ومن أمومتها حب المجتمع والإخلاص للوطن.

وهذه المرأة العربية غير المسلمة في بلاد الشرق قد مارست حقوقها وصانت أخلاقها. ليت شعري إن نظرة تنظر المرأة العربية المسلمة إلى أختها المسيحية وهما يسيران معًا في طريق واحدة؟ وأي شعور هذا الذي يتقد في أعماق نفسها، أهو شعور بالضعة أم النقمة أم الحزن أم الثورة، أم بهذه جميعًا؟ وإلى أين يؤدي هذا الشعور؟

وثانية الحجج أن حرية المرأة مفسدة للأخلاق، وهل كان الثوب الأسود الذي يلف المرأة من رأسها إلى قدمها يومًا حائلا دون المرأة الفاسدة وما تبطنه من فساد؟

وهل المرأة في ريفنا وفي أوروبا أحط أخلاقًا من المرأة في مدننا؟ لو كان الأمر كذلك لرأينا الحضارة الاوروبية الحديثة حضارة مغزوة لا غازية، والأخلاق الأوروبية مقهورة لا قاهرة، والواقع عكس ذلك.

وثالثة الحجج أننا هكذا وجدنا آباءنا من قبل. ويجب أن نعيش كما عاشوا. وصاحب هذه الحجة يجب أن يعيش بالفعل مدة من الزمن كما عاش آباؤه قبل مائتي سنة حتى يترك حجته، ويؤمن أن العالم يسير إلى الأمام لا إلى الوراء.

ومن جهة أخرى إن الأمة في أثناء الازمات – ومنها الحروب – تحشد جميع قواها للذب عن كيانها، وفي هذه الحروب جندت المرأة وأسدت لأمتها المحاربة جليل الخدمات، وبدلا من أن يعمل نصف الأمة عملت الأمة كلها، والنصف نصفان لا واحد.

ونحن في أزمة دونها أزمة، إنها تتناول جميع مظاهر حياتنا. إنها تتناول كياننا كله، أليس من الواجب أن نجند المرأة حتى نحفظ كياننا كما فعل غيرنا في أزمة دون أزمتنا؟

ومن جهة ثالثة يخطئ من يتوهم أننا نستطيع أن نعيش في عزلة عن العالم كما عاش آباؤنا من قبل، لقد أصبحنا جزءا من عالم

متقارب المسافات متشابك الحدود، ونحن بين أمرين لا ثالث لهما، فإما أن نعيش كما تعيش الأمم الأخرى التي أصبحت أقرب علينا من بعض أجزائنا، عيشة صحيحة، تحفظ لنا كياننا، وإما أن نعيش كما عاش آباؤنا قبل مئات السنين، فنغزى في عقر دارنا، ويأكلنا الفقر والمرض والجهل، ويتلاشى كياننا يومًا بعد يوم.

ولو رمى الناس أبصارهم إلى ما وراء مساكنهم لرأوا كيف تبني امرأة بيتًا وكيف تهدم أخرى بيتًا. ولرأينا كيف تسعد امرأة أمة وكيف تشقي أخرى أمة، ولرأوا كيف تشق امرأة بيدها الأرض وتدير عملًا وتبث تفاؤلًا وتشيع مرحًا، وتربي رجالًا، وتوحي فنًّا وأدبًا، وكيف تميت أخرى أمة، وتبيع زوجها أرضًا، وتبث تشاؤمًا، وتربي أشباه رجال، وتوحي جهلًا وحمقًا.

نحن في أزمة لا تخرجنا منها المنافسة وحدها، بل المكاثرة والمغالبة في كل شيء، في الصحة والإنتاج والخلق والتربية وفي كل مظهر من مظاهر الحياة. والمرأة هي المخلوق الوحيد الذي بيده مفتاح كل باب من هذه الأبواب، إنها هي التي تستطيع أن تقيم البيت على أساس اقتصادي متين، بدلًا من أن تكون كلا - هي وغيرها ممن لا

يعلم عددهن إلا الله – على الرجل تقسم ظهره وتخرب بيته؛ وأن تربي في أولادها روح الإقدام والشجاعة والطموح؛ وأن تكون مدرسة لهم تغرس فيهم حب العلم والعمل؛ وأن تعيل أطفالها إن فقدت عائلها، وأن تصون شرفها حين يقرصها الجوع؛ وأخيراً أن تحيا هي ويحيا بحياتها النصف الآخر من الأمة.

وإن قيل: كيف؟ والجواب يجب أن نعالج قضية المرأة كما تعالج الأمم الراقية قضية المرأة فيها. علينا أن نستفيد من تجارب غيرنا في تعليم المرأة وفي التشريع لها وفي تيسير سبل الرزق أمامها وفي معالجة مشاكلها التي تنجم في كل مرحلة من مراحل تطورها. وبعبارة أخرى: علينا أن نخرج قضية المرأة من دائرة الجدل والسفسطة إلى علم الاجتماع. هذا هو المبدأ العام الذي تسير عليه جميع الأمم والذي لا مفر أمامنا من أن نسير عليه.

ولأضرب لذلك مثلًا يتعلق بتعليمها. كانت الأمم الأوروبية والأمريكية ولا تزال تبحث عن أفضل الوسائل لتعليم الفتاة، وتواجه في سبيل ذلك مشاكل كثيرة، أتعلمها جميع العلوم التي

تعلمها للفتى؟ أتبيح لها درس جميع المهن التي يدرسها الذكور؟ أتجمعها في مدرسة واحدة في المرحلة الثانوية مع الشباب؟ وهكذا.

ومن الغريب أن روسيا التي تعد من أكثر الامم أخذا بالنظريات المتطرفة قررت في أثناء الحرب أن تفصل بين الشابة والشاب في المرحلة الثانوية، في حين لا تزال بعض الأمم تصل بينهما. وقد فعلا ذلك بعد تجارب طويلة ودراسة وافية، وهذا دليل على أن النظريات الاجتماعية والتربوية تتطور.

وأخيراً أسترعي النظر إلى نقطة خليقة بالعناية. حين يستعرض الناس قضية ما، في أي موضوع، يوازنون بين المحاسن والمساوئ؛ لأن الطبيعة، كما يظهر، شاءت أن تلتقي المحاسن والمساوئ في الكائنات. فإن رجحت المحاسن كان الاستحسان. وإن شالت كان الكره. فهل وازن الناس في هذه القضية بين ما يكسبون وما يخسرون؟ إن الأمة حين تعلم أن فقدان المرأة من المجتمع يهدد كيانها ترخص كل شيء في سبيل المحافظة عليه. وليس من يدري أي وجه من وجوه الكسب يمكن أن يدخل في حساب هذه القضية. وإن بحثنا أثر الثوب في الخلق طرحنا حتى الأصفار من الحساب.

إلا أننا لن نكون أمة، ولن تخرج السفينة إلى شاطئ السلامة إلا إذا مارست المرأة حقوقها الطبيعية كاملة، وعالجنا مشاكلها باعتبارها مخلوقًا كريمًا علينا، ووضعناها في الموضع الذي ينبغي أن تكون فيه، وهو موضع " الأم" الغالية وموضع " الأمة" الرفيعة الشأن.

التَّعليم

لقد ثبت أن وحدة الأمة تعتمد قبل كل شيء على وحدة ثقافتها بمعناها الواسع، وأن الأمة ذات الثقافات المتعددة تبدو مفككة الأوصال، متنافرة الميول؛ وأن وحدة الجنس – إن صحت – ووحدة الأرض لا تغنيان عن وحدة الثقافة.

وقد قال أحد علماء اللغات: إن الثقافة توحد أسمى ما في الناس. إنها توحد عقولهم التي بها تميزوا عن سائر المخلوقات. فرباط الثقافة هو الرباط الإنساني. وسائر الربط يشارك فيها الإنسان قريبه الحيوان.

وسبيل الوحدة الثقافية التعليم، وعلى ذلك يكون جميع الأميين عددًا منفصلًا بلغة المناطقة. والمنفصل عندهم ما انفصل عن المادة، ولم تكن له واسطة تجمع بين طرفيه. كقولك مائة وألف بلا معدود. وضده المتصل، وهو ما صار متصلًا بالمادة كالدرهمين والبرتقالتين.

وإذا شئنا أن يكونوا عددًا متصلًا فلا بد من تعليمهم تعليمًا يشعرهم أنهم أناس لهم حقوق وعليهم واجبات.

إن نسبة المتعلمين في بلادنا الصغيرة لا يتجاوز الخمس أو الربع على الأكثر. ونسبة المتعلمين تعليمًا يشعرهم بحقوقهم وواجباتهم

دون ذلك. ومعنى هذا أننا ربع أمة، إن لم تقل خمس أو سدس أمة.

وهذا وضع لقضية خطيرة في أبسط عملية حسابية، ولو أردنا أن ننظر اليها من ناحية النوع لساءت النتيجة، إذ لا يعقل أن يقاس هذا الشخص الساذج القليل التجارب القليل المال القلقة حياته الاجتماعية والاقتصادية والصحية بمن ترى حولنا.

ولكن التعليم هو باب الوعي، وهو الذي يرينا حقيقة حالنا كما تري المرآة المجلوة وجه الرائي. فهو لهذا خطوة أولى لا بد منها قبل أن نتعرف إلى حقيقة كياننا وما يواجهنا من مشاكل. وإن عالجنا مشاكلنا قبلها لم نأمن أن نخطى موضع الداء وكنهه، وإن نصف داء لا يبرئ من الداء.

وأخطرها نتائج الأمية، بيد أن هناك نتائج غير هذه ذات تأثير عميق في حياة الأمة.

إن التأليف مظهر من مظاهر النشاط الفكري، ومفخرة من مفاخر الامة الخالدة على الزمن، وسجل علومها وآدابها. فإلى اي حد تستطيع أمة لا يحيا حياة عقلية إلا سدسها أو سبعها أن تنتج كتاباً

ومؤلفين؟ وكم كتاباً يمكن أن تنتج في عام؟ وكم نسخة من ذلك الكتاب يمكن أن ينفق في السوق الكاسدة.

إن الأرقام التي نعرفها شائنة حقًا، وهي نتائج لمقدمات أظهرها تفشي الأمة وانحطاط المستوى الفكري.

لا نعرف مؤلفًا في هذه البلاد – عدا مؤلفي الكتب المدرسية – راج له كتاب حتى أعاد طبعه، بل لا نعرف مؤلفًا خرج من مؤلفه بنفقاته.

ولعل ما يفيد القارئ أن نضع أمامه جدولًا بالمؤلفات العربية لغة التي ظهرت في فلسطين منذ سنة ١٩١٩ إلى ١٩٤٤، وهذه الأرقام تقريبية؛ لأن الرقم الصحيح مدفون في صدر التاريخ. وأين الباحث في صدر التاريخ عن مثل هذه الأرقام الرخيصة؟ بل أين الباعث قبل الباحث؟

السنة	الرقم	السنة	الرّقم	السّنة	الرقم
١٩١٩	٣	١٩٢٨	٤	١٩٣٧	٢٠
١٩٢٠	٢	١٩٢٩	٣	١٩٣٨	١٥
١٩٢١	٣	١٩٣٠	٤	١٩٣٩	١٢
١٩٢٢	٠	١٩٣١	٣	١٩٤٠	٨
١٩٢٣	٧	١٩٣٢	٢	١٩٤١	١٥
١٩٢٤	١	١٩٣٣	١٨	١٩٤٢	٩
١٩٢٥	١٢	١٩٣٤	١٤	١٩٤٣	٦
١٩٢٦	٧	١٩٣٥	١٦	١٩٤٤	١٠
١٩٢٧	٣	١٩٣٦	١٢	١٩٤٥	؟

وهذه الأرقام تدل على الكمية، ولننظر إلى النوع، ولنأخذ مثالًا على ذلك سنتين متتاليتين هما سنة ١٩٣٨ وسنة ١٩٣٩. وقد اخترتهما لأنني أظن أن رقميها وموضوعات كتبها قريبة إلى الصواب.

سنة ١٩٣٨		سنة ١٩٣٩	
الموضوع	العدد	الموضوع	العدد
مدرسي	٨	مدرسي	٥
روائي	١	روائي	١
ديني	١	ديني	-
سياسي	١	سياسي	١
شعري	١	شعري	-
اجتماعي	١	اجتماعي	١
تاريخي	١	تاريخي	١
نسائي	١	نسائي	-
		أدبي	٣
المجموع	١٥	المجموع	١٢

وكان بودي أن أضع إلى جانب هذه الارقام أرقام الكتب غير العربية التي نشرت في فلسطين من سنة ١٩١٩-١٩٤٤ ليظهر الفارق الهائل، ولكن ... وعلى كل، فقد علمت أن عدد الكتب العبرية التي صدرت

سنة ١٩٣٣-١٩٣٤ كان ٣٤٩ كتاباً، والانكليزية ١١ كتاباً، والبولونية ٣ كتب، والأرمنية ٤ كتب، والألمانية كتابين.

وإخراج النسب عملية حسابية يسيرة يستطيع القارئ أن يجريها بنفسه.

وقد يحتج بأن علة هذا الفارق ورود الكتب المصرية إلى فلسطين وسدها حاجة القراء من طلاب وغير طلاب، وهذه حجة يقتضي الإنصاف أن أثبتها، ولكنها لا تبرر بحال ضآلة الأرقام التي ذكرت.

ومن جهة أخرى لا نعرف صحيفة عربية في فلسطين تدفع إلى الكتاب أجرًا على ما يكتبون، فالكتاب ما يزالون يخطبون ود الصحف لنشر مقالاتهم مهما علا شأنها، وليس المال كذلك في الصحف غير العربية، وليس عندنا مجلات تعالج مشاكلنا الأدبية والتعليمية والزراعية والاقتصادية والصحية، وما إلى ذلك، ولا نعرف "الملاحق" الأسبوعية التي تسد بعض الحاجة.

ليس من علة لهذا الوضع الشاذ سوى قلة نسبة القراء وانحطاط المستوى الثقافي، وهذه الحقيقة عارية من كل زخرف، وإذا أردنا أن نكون أمةً تحيا حياة عقلية راقية لا بد لنا من نشر التعليم في

جميع البيئات، في المدن والقرى ومضارب البدو، لتجتمع الأمة الواحدة على وحدة التفكير، ووحدة الثقافة، وليظهر بيننا كتاب ومؤلفون يخلقهم قراؤهم في بيئتهم التي يعيشون فيها.

على أن التعليم العام بمثابة الغذاء للناس؛ الغذاء الذي لا يقوى إنسان على الحياة بدونه؛ ولذلك يجب أن يتوافر لكل شخص ذكرًا كان أم أنثى، بيد أنه ليس الغاية التي تقف عندها أنه المطلب الأول وليس الأخير. ولا بد لنا من نوعين من التعليم ييسران لكل طالب راغب فيها؛ الأول التعليم العالي، والثاني التعليم الفني، وهذا أمر يفرضه الفارق الطبيعي بين المعدة والعقل، فالمعدة لها نهاية، وليس للعقل نهاية؛ ولذلك لا بد من فتح المجال أمام أصحاب المواهب لينالوا أكبر حظ مستطاع من العلم بمختلف ضروبه.

ونحن بحاجة في ظروفنا الحاضرة إلى توجيه طلاب العلم العالي إلى الفروع التي تلائم بيئتنا وطبيعة بلادنا، وهذا العالم الذي نعيش فيه اليوم يعول في بناء الحضارة على العلوم الآلية التي تستغل موارد البلاد أتم استغلال، ومواهبنا الذي تنافي هذه الاتجاه. ولكنا بحكم تراثنا القديم، وبحكم تجاربنا الماضية، نفرط في العناية

بالعلوم اللسانية، فنغالي في تقويم العبارة والجمال اللفظي، ونستحف بالفكر والفن اللذين هما قوام العبارة؛ ولذلك لا بد من دعم البيان بالفكر حتى يتزن أدبنا، ولا بد من ملء الفراغ الحاصل في حضارتنا بالعلوم التي أنتجها الغرب، أما أن يتجه جل طلابنا إلى دراسة فرع واحد كالحقوق أو الآداب، كما هو مشاهد في الوقت الحاضر، فخطأ يحب أن يصحح بحسن التوجيه.

وليس في هذا زراية بالأدب الذي هو مجموع عواطف الأمة وخلجات قلبها، فالأدب مشاع لجميع الناس، ولا يمنع المهندس والطبيب والرياضي والكيماوي من ارتشاف الأدب، والأدباء الموهوبون لا يكونون، بل يفرضون أنفسهم فرضًا على الناس، ومتى ظهر القراء المثقفون، واستفحل العمران، وحدث الغليان في أعماق الفكر، تكونت الزبدة التي نسميها أدبًا، وقد ينبت الادب في عقل الرياضي أو الفيلسوف أو الطبيب.

يضاف إلى ذلك أن الحاجة إلى استثمار خيرات البلاد ومواردها، وإلى إنشاء الصناعات المختلفة لسد مطالب الناس، تلح أن نعد البيت غير العربي بل أضعف من أن يقف في وجه منافسه ويحافظ على

كيانه، ولا بد من تغير القواعد الاقتصادية العتيقة التي كانت في الماضي من أجل مثلنا العليا، وإقامة قواعد جديدة مستمدة من العالم الجديد، وإن كانت تقلب "كرمنا" القديم رأسًا على عقب، وتحرمنا مصدرًا من مصادر فخرنا الذي تغنى به الشعراء زمنًا طويلًا، ولسنا بحاجة اليوم إلى التغني بالكرم بقدر حاجتنا إلى حفظ كياننا، والتحكم بمواردنا، وتصريفها بحسن تدبير.

ومن ينعم النظر في حياة سواد الأمة لا يجد أثرًا للعقلية الاقتصادية في تدبير شؤون البيت، وفي تصريف نتاج القرية، وفي توزيع دخل أصحاب المهن والصناعات من تجار وصناع وعمال ومن إليهم.

فقيرنا – على فقره – يكاد يعيش عيشة الغني فيمن نرى وفيمن عرفنا في الغرب، من حيث الطعام والملبس والحلي، لا من حيث جميع وسائل العيش، فمستوى العيش منخفض على حساب تضخم مستوى الأكل واللبس والزينة.

ومن جهة ثانية قلّ منا من يعرف قيمة "النفايات"، فما تقذف به أسرة يغذي أسرة كاملة، وقلّ من يلتفت إلى قيمة الأرقام الصغيرة التي تكوّن الأرقام الكبيرة، ومجموع ما يمكن أن توفر أسرة من

الأرقام الصغيرة تعيش به أسرة أخرى، فحسابنا لا يعنى بالجزئيات، إنه يعرف وجهًا واحدًا في الغالب، هو زيادة الدخل على الخرج أو الخرج إلى الدخل، ولكن كيف جاءت هذه الزيادة؟ ومن أي الأبواب؟ وكيف يحدث التعادل في الدخل والخرج؟ فتفصيلات لا نلقي إليها بالًا. وحسبنا أن ننفق مما رزقنا الله، وأن نبذر ما في الجيب اعتمادًا على ما سيأتي في الغيب.

وربما كان هذا أكثر انطباقًا على المدن منه على الريف، ولكن حياة الريف الاقتصادية ليست أحسن حالًا من المدن، فالقرية عيوبها الاقتصادية الخاصة كالكرم المفرط، والغلو في المهر، وميل الرجل إلى الاعتماد على المرأة في كثير من شؤونه، والتعامل الفردي الذي يودي ببركة المحصول، والقناعة بالقليل.

إن العلاج لهذه الحالات يعرفه علماء الاقتصاد والاجتماع، فهم أطباء هذا العصر المادي، ولكنه ليس بعيدًا عن الأنظار أيضًا.

فكما أن هناك علاجات معروفة عند عامة الناس لطائفة من الأمراض، كالأسبرين، والكينا، والقطرة، واليود وما إليها، هناك علاجات معروفة لمثل هذه الأمراض الاقتصادية.

وأول علاج يجب أن يعمّ استعماله هو الحصول على أكبر كمية من النتاج بأقل كمية من المشقة باستعمال الوسائل الحديثة من آلة وخبرة فنية، ويجب أن يبذل في الطعام والكساء والحلي والزينة أقل مال، وأن يبذل في إنماء الثورة ذاتها من أرض أو تجارة أو صناعة أكثر مال، ويجب أن نعرف مواردنا وثرواتنا المدفونة في الأرض والماء معرفة الدارس المنقب، وأن نستغلها بالوسائل الحديثة. يجب أن يدخل المحراث العميق، حقيقة ومجازًا، في كل أرض ومشروع، وأن ندخل التنظيم المالي الحديث في كل متجر ومصنع.

ومن جهة ثانية يجب أن يشترك جميع أفراد الشعب في العمل، كل حسب ما يصلح له، ولنا في هذا الشأن حال عجيب، ففي الريف يتراخى الرجل وتجدّ المرأة، وفي المدينة يجدّ الرجل وتتراخى المرأة، وفي كلا الحالين يتعطل نصف الشعب تقريبًا، وبعبارة أخرى إننا نصل بيد واحدة فقط، ويعمل غيرنا بيدين، فننتج في الساعة الواحدة نصف ما ينتجون.

وإن أضفنا إلى ذلك فقدان فن الإنتاج عندنا ووجوده عندهم كان حاصل ما ننتجه في الساعة ربع أو خمس ما ينتجون، وينجم عن

هذا بالضرورة قلة هنا وكثرة هناك، تراخ هنا وازدهار هناك، انقراض هنا ونمو هناك.

وماذا تكون نتيجة هذه العملية بعد عشرات السنين؟ لست بحاجة إلى إيراد الجواب، فالحاضر ينبئ عن المستقبل، والتلميح يغني عن التصريح.

ومن جهة ثالثة يجب أن تقوم حياتنا الاقتصادية كلها على أساس التعاون، فموارد القرية يجب أن تجمع بالتعاون وأن تصرف بالتعاون.

وشرح هذه القضية يوجز في هذا المثل: إذا أنشأنا مدرسة في قرية يهرع إليها جميع طلاب القرية، بنين وبنات، ويجلسون على مقاعد متشابهة، ويستمعون إلى دروس واحدة، ويسألون أسئلة واحدة، وتوزع عليهم فحوص واحدة.

وهذا عمل مثالي ولا ريب، ترى كم تبلغ نفقات القرية أو فتح كل والد مدرسة لأولاده، وتعيين معلم خاص لهم، واتخذ لهم بناء خاصًا ومقاعد خاصة وكتبًا خاصة ...إلخ.

وما الذي حمل القرية على أن تسلك النهج الأول بدلًا من الثاني؟ لا شك في أنه الإدراك الفطري لقيمة التعاون، وما الذي يمنع أن تسلك القرية هذا المسلك في سائر شؤونها؟

لقد أوحت الفطرة السليمة بأن التعاون هو السبيل الوحيد لحفظ جهود الجماعة، وقد اتبعه الإنسان في حال فأثبت أنه السبيل السوي الذي لا سبيل سواه، ولم يتبعه في أحواله فأضاع جهود الأفراد عبثًا.

وهذا الذي يقال في القرية يقال في المدينة، وفي كل مجتمع صغر أو كبر.

لقد كان يصح أن نستقلّ في حياتنا الاقتصادية وتصريف مواردنا على الوجه الذي نرتئيه، كما كنا نفعل في قديم الزمان.

ولكن لم يعد لدينا خيار اليوم، فالمنافسة الاقتصادية قائمة على قدم وساق، ومظاهرها ونتائجها بادية لكل عين، حتى لقد رآها القروي وهو في عزلته.

قرأت كلمة للكاتب الإنجليزيّ المشهور برنارد شو يخاطب فيها قومه في صدد إصلاح الكتابة الإنكليزية أثبت هنا خلاصتها: "إن

فكرة تغيير كتبنا ومطابعنا لإصلاح الحروف تبدو كأنها أثقل من أن نفكر فيها بجد، فالثمن الباهظ يمنعنا من ذلك.

وإنه لمن المضحك أن نكتب كلمة though بستة حروف بدل حرفين، كأن الوقت المضاع ما هو إلا جزء من الثانية، ولكن اضرب ذلك الجزء من الثانية بعدد المرات الذي نكتب فيه هذه الكلمة في الإمبراطورية البريطانية وفي شمال أمريكا كلّ ساعة وكل يوم وكل شهر وكل سنة وكل قرن يرتفع الثمن من ربع البني، ما يعادل الملل، إلى جنيهات، عشرات الجنيهات، مئات، آلاف، ملايين، ملايين الملايين من الجنيهات، وعندئذ يبدو ثمن التغيير زهيدًا للغاية.

إن كون روسيا بحروفها الخمس والثلاثين تستطيع أن تكتب أسمي بحرفين بدل أربعة يجعل من المستحيل علينا أن ننافسها اقتصادياً. وأنا مستعدّ أن أقف كل ما أملك على وضع أثنين وأربعين حرفًا جديدًا. لقد اقتصدت سنين كثيرة في استعمال مثل تلك الحروف في مؤلفاتي ولكن كان لا بد من إعادة كتابتها وطبعها على الآلة الكاتبة، ثم إعدادها للطبع بالحروف الفينيقية (يقصد الحروف المعروفة

اليوم باللاتينية. وسماها الفينيقية باعتبار الأصل البعيد) وبذلك لم يقتصد أحد في وقته سواي.

أشير أولًا إلى أن هذه النزعة الاقتصادية التي يراها القارئ لا ينفرد بها شو، إنها نزعة أمة يمثلها أشهر كتابها اليوم، وثانيًا إلى أنها تنبئ عن التفكير الاقتصادي الذي يسود العالم. وثالثًا إلى أنها توجه إلى أمة تعدّ من أغنى دول العالم، دينارها كملنا، على أقل قياس.

ليت الناس يقرأون كلمة شو بدقة وحسن فهم، ويوازنون بين تفكيرنا وتفكيرهم، وحالنا وحالهم.

وإن كانوا هم يحاسبون على الحرف الواحد فعلام نحاسب نحن؟

يجب أن نحاسب على النقطة، أجل على النقطة، حتى نحفظ كياننا من الدمار في هذا الصراع العالمي الهائل.

ألا إ ننا لن نكوّن أمة، ولن تعود السفينة إلى شاطئ السلامة، إلا إذا أقمنا حياتنا الاقتصادية على الأسس نفسها التي يقيم الأوروبيون وغيرهم ممن نرى، حياتهم عليها، وإلا إذا سادت العقلية الاقتصادية سواد الأمة، وإلا إذا حاسبنا على النقطة في عالم يحاسب على الحرف.

أخلاق

ومن يحقق هذه الآمال، أو على الأصح المشاريع الواقعة في نطاق المقدرة؟ الأفراد أو الشعب، ولا شك، وهل هم قادرون عليها؟ وهل سجاياهم الانجذاب نحو المشروع الواضح الفائدة والتصميم على إخراجه إلى حيز الوجود، والعمل بكفايات منسجمة في دائرة المصلحة العامة؟ وبالجملة: هل عندنا أخلاق أمة مصممة على العودة إلى القمة، أم أن التفكك الخلقي بلغ حدًّا أصبحت معه جميع هذه المشاريع أحلامًا؟

ليست الأخلاق غرائز فطرية، ولا هي مادة مقبولة على طراز خاص لا تفلح الصنعة في تغييرها.

الأخلاق ملامح اجتماعية تكوّنها وتكيفها طبيعية البيئة ونظم الحكم، والصنائع التي يتخذها السواد، والثقافة، والتاريخ بما يشمل من أيام سوداء وبيضاء.

ومن الممكن أن توجه الأخلاق وجهات معينة، وأن يتغلب إلى حد ما على عوامل الزمان والمكان، إن أطلق للموجهين الحرية؛ الحرية التامة في العمل على التوجيه الخلقي، وإن كان التوجيه مسايرًا للطبائع العامة، وفي حدود الخير الذي لا ريبة فيه.

وأخلاقنا – كما هي اليوم – نتيجة عوامل منها البعيد ومنها القريب. فتسلط الأجنبي مدى عصور طويلة – وفترة الحكم التركي وحده أربع مئة سنة – ربى فينا خلق الأمة المحكومة، وتعدد الثقافات ووسع شقة الخلاف بين وجهات النظر، ونزعتنا إلى العصبية الفردية والقبلية قوت فينا الخلق الفردي وأضعف الخلق الجماعي، وميلنا إلى الجدل واللسن منذ القدم كان أشبه بالغاز يلقى على هشيم العصبيات، والتربية البيتية ضخمت عواطفنا، وفقدان المرأة أضعف الروابط الاجتماعية، وعزلتنا في عصور الظلمات حدّت من تجاربنا وحرمتنا الحنكة الفردية والجماعية.

ولكن طبيعية البلاد التي تجعل بعض الجماعات بعيدًا عن التأثر ببعض هذه العوامل، وتربي فيه خلق التربية القاسية.

وجوهر الخلق العربي المؤمن بإله عادل قادر ويمثل عليا روحية لا تنال منها الأيام. وما تبطنه عوامل الشر من خير لا مناص منه كالإنذار بسوء المصير، والتكتل في ساعة الضيق، والإحساس بذلك الجزء الخالد من التراث القديم. كل هذه عوامل واقية، إن لم تدفع النتيجة، تؤخرها وتوهن من حدتها، وإن أدرك أولو الرأي هذا

الصراع الخفي بين العوامل الهادمة لأخلاقنا والعوامل الواقية لها، وتمكنوا من استئصال الأولى أو إضعافها على الاقل، ووقفوا على نواحي الضعف من أخلاقنا فقووها وقوّموها بحسن التوجيه، أمنا شر الوهن في نفوسنا، وتوافر لنا عامل اساسي في بناء كياننا.

هناك نواح بارزة علينا ان نبادرها بالعلاج.

فنحن نرى أمزجة متنافرة وميولًا متشبعة وثقافات متفرقة. ومن جهة اخرى نحن لا نحتمل هذا التعدد. فكل إنسان يودّ أن يكون غيره نسخة منه، ميوله كميوله، وآراؤه كآرائه. وإلا فهو شخص لا يطاق ولا يعاشر.

فعلينا أن ندرك أن جمع الناس كلهم على وحدة التفكير ووحدة الطباع والميول أمر صعب المنال، لا سيما في هذه الظروف. وإن سلوك الطريق الآخر – أي بتر كل إنسان مخالف لنا في المجتمع – أمر مستحيل، وليس أمامنا إلا أن نوسع آفاقنا ونحتمل هذه الفروق بصدور رحبة. ثم نعمل على تمهيد السبل لتكتل الجماعات في الأندية والمدارس والحلقات والأعمال، مبدين غاية التسامح في

العقائد والآراء والميول، حتى ينشأ فينا الخلق الجماعي بالتدريج، ويحل الانسجام محل التنافر بقدر ما تحتمل طبائع البشر.

وعلاج هذه الظاهرة مقدم على كل علاج؛ لأن التنافر هو الثغرة التي ينفذ منها إلى التخذيل والتضريب.

ونحن نرى نزعات فردية أو أنانية، أعطِ فلانًا منصبًا يكن كما تريد لا كما ينبغي أن يكون، لوّح به بدرجة أو رتبة وقل له دونها نطح فلان وفلان، فإنه يسن قرنيه وينطح، ولو كان المنطوح من أشوف الناس وأفضلهم، قل لفلان هذه وجاهة أو رئاسة أو ثروة، فيسعى إليها ويتهالك عليها دون رعاية لمبدأ أو مصلحة عامة.

علينا أن نفهم هؤلاء الناس أن كل شيء فردي يعيش مع الفرد ويموت مع الفرد. وأن كل شيء جماعي يعيش مع الجماعة ويموت مع الجماعة، ويعم خيره ويبقى.

هؤلاء الفرديون مرضى علينا أن نعالجهم حتى يشفوا.

ونحن نرى أناسًا ينفسون على غيرهم بما في أيديهم، إن أثرى فلان فثراؤه مدخول، وإن تعلم فلان فعلمه ضحل، وإن ترقى فلان فبغير جدارة.

إن الذي يبني لا يتسع وقته للهدم، فليَعالَج هؤلاء النافسون على غيرهم مرضهم بالبناء؛ ليعملوا ما وسعهم العمل، أو على الأقل ليعجبوا بالعامل وليروا فيه رجلًا خيراً منتجًا حتى يتأثروا به بلا شعور، وإن خاصموا بانيَا فليكن خصامهم مقابلة البناء بالبناء.

وهذه هي المنافسة الشريفة.

ونحن شكاكون مسرفون في الشك، الريبة تسقط من السماء إلى الأرض، لا نولي الثقة أحدًا، وإن أولیناه إياها فإلى حين يهفو أو يعثر، تؤثر الصرامة على التسامح.

وهذه ظاهرة لها وجه حسن، فالشك مفتاح اليقين. والصرامة تقوي الخلق، ولكنا في دور تكثر فيه سقطات الناس، فلنشمل العاثرين بالحلم حتى لا يعثروا مرة أخرى. وكم دفعت القسوة مذنبَا إلى إيلاف الذنب، وضالًّا إلى الإمعان في الضلال، لنعود الناس حسن الظن، ولنربِ فيهم الثقة ببناء وطنهم، وإذا انحرفوا فلنعرف سبب انحرافهم ولنعالجه، فإذا انحرف شخص لفقره فلنسدّ خلته، وإن انحرف لحبه الجاه فلنضع رأس الابرة في الجاه ولنره كيف يرتد أصلًا

واهيًا، وإن انحرف لخصومة فلان، فلنفهمه أن طريق الخصام العلوّ لا الانحطاط.

وكثير منا يعيشون بعواطفهم، وينسجون حولهم هالة من العظمة، فإذا بدر من أحد ما يمس عظمتهم المزعومة – ولو بعدم التحية عن غفلة مثلًا – تصور لهم ذلك الأحد شيطانًا، ولم يقتصروا على كره ذاته، بل كرهوا كل ما يصدر عنه من أفعال، سواء أقبيحة كانت أم شريفة. وإن كان هذا الأحد خيراً قابلوا خيره بالشرّ.

ما أحقر أصول الخصومات التي نراها في المجتمع! ومع أوضع شأنها! إنها قائمة على عناصر شخصية، فلان يكره فلانًا فتقوم حولها دنيا من الخصومة العنيفة التي لا تبقي ولا تذر، وفلان أساء عن قصد أو غير قصد إلى فلان، فتنشأ بينهم حرب شعواء لا تقف عند حد.

إن هؤلاء الذين يخاصمون لاعتبارات فردية أو عصبية لا يسمون بفكرهم إلى المصلحة العامة، ولا يضحون في سبيلها بأهوائهم، يستطيع فلان أن يكره فلانًا إلى حد الجزع من رؤيته، ولكن وطنه

يفرض عليه أن ينحي هذا الكره جانبًا حين يدخلان في دائرة العمل المشترك لمصلحة المجموع.

يجب أن تكون محبة الوطن فوق كل محبة، تنعقد الصدقات من أجلها وتنفصل – إذا كان لا بدّ من الانفصال – من أجلها. وعلى هذا الأساس يجب أن تنشأ العلاقات بين الأفراد والجماعات.

أما هوى النفس فيجب أن يخضع لسلطان العقل. ويجب أن يظل في حدود المعاملات الاجتماعية الضيقة التي لا تتعدى اثنين.

وأخيراً لنقدس الحرية الفكرية؛ ولنستمع إلى الناس كما نحب أن يستمع إلينا الناس. لنأخذ ونعط. ولتجمعنا الآفاق البعيدة التي تسطع فيها نجوم الخير والعدل وحب الوطن.

إن نشاط الفكر دليل الحيوية التي هي سر تقدم الإنسان في جميع نواحي الحضارة، وليس شيء أقتل لهذا النشاط من تقييد الحرية.

ومن أعجب ما نرى أن بعض الناس الفاقدي الحرية يتمنون لو فقد غيرهم حريته، إنهم كالمريض الذي يتمنى أن يمرض غيره، وهذا شعور شاذ مؤدٍّ إلى أقبح العواقب في المجتمع.

هذه هي الأخلاق التي يجب أن نغرسها في الأفراد. إنها تحتاج إلى رياضة وقسوة على النفس. ولكن خير لنا أن نقسو على أنفسنا قليلًا من أن يحطمنا غيرنا.

ألا إنا لن نكوِّن أمة، ولن تعود السفينة إلى شاطئ السلامة، إلا إذا كوّنا فينا خلق الأمة الراقية، وإلاّ إذا نسلنا من أخلاقنا تلك الخيوط السوداء التي كانت علَّة انحطاطنا، ووضعنا بدلًا منها خيوطًا بيضاء تستهدف خير الجماعة ووحدتها.

إيمان

يبدو أن هذا الحديث ينتهي إلى إضعاف الأمل بالعودة، فهذه المراحل التي أمامنا شاقة، ومن أين لنا القوى لإحداث هذه التغيرات في أصول حياتنا القاتمة؟ وأين لنا الحرية؟ وأين الموجهون؟ وأين المؤمنون؟

هذا قول مؤدَّاه: لن نعمل، ولن ننجح، ولن نعود.

وقائله يستشعر في نفسه أضعف ما يمكن أن يستقر في النفس من تراخٍ وخيبة أمل وتشاؤم واستخذاء، وهو ضيق الأفق، منكر للطاقة الإنسانية، جاهل بالتاريخ.

والمتشائمون في العالم أنانيون، فهذا الذي يقول: "لدوا للموت وابنوا للخراب، فكلكم يصير إلى تباب"، ينظر إلى نفسه وولده من بعده، ويحسب الدنيا تنتهي عند نهايته ونهاية أعقابه من بعده، فهل هذا نظر صحيح إلى الخليقة؟ لو كانت الكرة الارضية زجاجة ذات مقبض باستطاعة كل متشائم أن يمسكها بيده ويقذف بها في أعماق البحر - بحر العدم – الذي لا أدري أين يوجد – لجاز للمتشائمين أن يدعوا الناس إلى الانقراض، ولكن الكرة الارضية باقية إلى ما شاء الله أن تبقى، والذراري ستتعاقب، والإنسان سيتعلم ما لم يعلم.

وسيهتدي الناس إلى طرق الخير والسعادة، وإن كانوا يظهرون من الحمق أحيانًا ما يوهم البسطاء أنهم لن يهتدوا.

ومن جهة أخرى هل انتحار فرد أو قبيلة أو أمة أو قارة برمتها يقنع ما تبقى من الخلق بأن الانتحار للأخيار؟

إن العالم باقٍ وإن اختلفت مذاهب الناس فيه، وإن التهمت الحروب كل عام الملايين من سكانه، بل ما دام فيه إنسان واحد، وهذا الإنسان لن يفنى. إنه سيعيد سيرة جده آدم. وسيبدأ العالم من جديد.

وإذن فأي حمق أبلغ من حمق المتشائم؟ وأي سفه أبلغ من سفهه؟ إن المتشائم يستطيع أن يفرض نفسه ويخذل غيره لا أكثر ولكن لن يبلغ من القوة حد قذف الزجاجة في البحر.

ولهذا يجب أن نؤمن إيمانًا لا يتزعزع بوجودنا وبعودتنا وعلى الذين يغمرهم الجزع في الحاضر أن يلتفتوا مرة إلى الماضي ومرتين إلى المستقبل.

أما الماضي فسيعيد إليهم إيمانهم بجوهرهم الذي قال فيه سيد شعراء العرب أبو تمام:

لنا جوهرٌ لو خالط الأرضَ أصبحت

وبطنانها منهُ وظهرانها تبرُ

مقاماتُنَا وَقْفٌ على الحِلْمِ والحِجَى

فأمْرَدُنا كَهْلٌ وأشْيَبُنا حَبْرُ

مساعٍ يضلُّ الشعرُ في كنهِ وصفها

فما يهتدي إلاّ لأصغرها الشعرَ

فنحن أمة خلفت وراءها تراثًا من الفكر المشرق والأدب الرفيع خالدًا على الدهر، وأمة هذا شأنها لن تبيد.

وهذه الحالات التي نعانيها إن هي إلا أعراض ستزول. سيزيلها لا الاتكال على الماضي بل العمل المتواصل للمستقبل بالروح التي انتشر بها أجدادنا في مشارق الارض ومغاربها، وضربوا أوتادهم في اقاصي المعمورة، وبالعقلية النيرة الجديدة التي تلبس لكل حالة

لبؤسها، وتثب في عالم الفكر والاجتماع والاقتصاد وثبات من يدرك خطورة حاضرة وجلال مستقبله.

إننا لن نلقي على الماضي إلا نظرة واحدة. اما المستقبل فله منا نظرتان. وإننا لنعلم أن الوقت لا ينتظرنا حتى نبدأ من حيث انتهى آباؤنا، ولا من حيث ابتدأت الأمم الراقية، سنبدأ من حيث انتهت، وسنأخذ من كل جديد نهايته، وسنغرف من الحضارة الأوروبية ما يطلق مواهبنا إلى غاياتها، وما يبعث في تراثنا حياة جديدة.

لقد دخلت الحضارة الحديثة إلى بيوتنا كما يدخل النور إلى النافذة. فكشفت لنا عما في الغرفة التي انقطع عنها النور مدة طويلة من الزمن، ورأينا حقيقة حالنا، فإذا في الغرفة عقود من أكرم الجواهر قد انقطعت أسماطها وتناثرت حباتها، وإذا فيها صحف كريمة، وإذا فيها أوان قديمة وثيابٌ بالية.

لقد كان بإمكاننا أن نعيش على ما في الغرفة، ما دامت الغرفة مظلمة لا يرى أحد ما فيها. أما وقد أصبحت معرضة للأنظار، وكشف الضوء عما فيها، وعرفنا حقيقة محتوياتها، فيجب أن نعيد ترتيب أثاثها وفرشها وعقودها من جديد، إننا نملك كنوزا ثمينة،

ولكنها ظلت مهملة في الغرفة المظلمة قرونًا طويلة، وقد اختلفت أثمانها، منها ما غلا ومنها ما رخص، فيجب أن نقوّمها بحساب هذا العصر، وأن نصنفها أصنافًا، وأن نستبدل بالفرش القديم والأواني العتيقة فرشًا وأواني جديدة تلائم روح العصر.

لقد خلف لنا شاعر من شعرائنا بيتين جميلين. لنذكرهما:

لسنا وإن أحسابنا كرمت يوما على الآباء نتكل

نبني كما كانت أوائلنا تبني ونفعل مثلما فعلوا

ففي هذين البيتين حث على العمل وإطلاق المواهب إلى غاياتها.

ولنذكر أيضًا في حالات الجزع أننا مَحُوطونَ من كل جانب بإخوان لنا أعزاء، ربطنا بهم التاريخ والثقافة واللغة ووشائج لا تنفصم عراها.

لقد خرجت الموجات البشرية من الجزيرة، فهل الذي أخرجها اختفى؟ وهناك موجات عقلية من ضياء الفكر، اندفعت من وادي النيل، ومن شواطئنا الشمالية، ومن بلاد الرافدين، في الزمن القديم، فهل الذي دفعها اختفى؟

إن التاريخ لم ينته، إنه سائر في طريقه يتكئ على عكازه القديم وسيبقى سائرًا ما بقيت الحياة على وجه الأرض، لكنه رجل مسن، ساعاته بالنسبة إلينا سنوات أو قرون، وها نحن نراه يبتسم، إنه يخبئ بشرى ستتفتح لها أبواب السماء، وتهلل لها أسارير الوجوه، على ضفاف الانهار وشواطئ البحار.

ولكن علينا أن نصون السفينة من العطب. ومن ادعاء من يدعي أنَّ له حقًا في ثقب الجزء الذي يملكه منها، وأن نعمل بجد وحزم وتعاون، معتمدين على أنفسنا أولًا، وعلى جوارنا ثانيًا، وعلى عالم الخير والعدل الذي تتمخض عنه الأيام ثالثًا.

أجل؛ إننا سنعود إلى القمة حيث كنا، وستعود السفينة إلى شاطئ السلامة باسم الله مجراها ومرساها.

فكن أنت، نعم أنت، من البحارة الذين يصونون السفينة ويدفعونها بعزمهم وحزمهم في وسط البحر الهائج والأعاصير العاتية إلى الشاطئ، لا تقل: ليتقدم غيري، إذا قلت هذا سيقوله غيرك. وإذا قاله غيرك فلن يعمل أحد، وإذا قلت: سأتقدم أنا، سمعت أصواتًا تنبعث من كل جانب: سأتقدم أنا، سأتقدم أنا، كأنها

أصداء تتجاوب في أعماق الأودية. وعندئذ تتوحد القوى المبعثرة، وتتضافر الهمم المتفرقة، وتبلغ السفينة شاطئ السلامة بإذن الله وعونه.

لقد مثّل النشر عبر العصور أداةً للتمدّد والاحتواء، وهو بذلك استطاع أن يمتلك قُدرة استثنائية على التجدّد والتنوّع في حركته وتحوّلاته التقنية، بدءًا من الإيماءة ومرورًا بالنقش ثم الطباعة على الورق، ليُشكّل بذلك ضوءًا مُتعدّد الطبقات، يَقبضُ بوميضه على أحاسيسنا المتغيّرة بفعل الزّمن.

إن تمدّدًا على هذا النّحو، يمكنه أن يقلّص المسافة، وأن يُجسّد حاجتنا إلى التنقّل عبر المحطات العابرة للتاريخ، بل يُثري تجاربنا في تشكيل القوالب الحيّة لذاكرة لا تغيب.

فتلك التحوّلات التي أنتجتها التكنولوجيا لم تأتِ صدفةً، إنها انبثاقُنا المبتكر نحو خلق الترابط مع الآخر في هذا العالم الوسيع.

ضمن تلك الرؤية، صمّمت وزارة الثقافة مشروعها نحو النشر الرقمي ليقينها بضرورة توسيع نطاق النّشر وإتاحته أمام أكبر عدد ممكن من الباحثين والدارسين والقُرّاء.

وزير الثقافة
عماد عبدالله حمدان

مشروع النشر الرقمي